

هل التوبة
مدعاة لارتكاب المعاصي
أم لإصلاح النفوس؟

مقاربات علمية عقلية

بين اللطف الإلهي والتمادي البشري

في مفهوم التوبة

حسن الهاشمي



شعبة الدراسات والنشرات

كربلاء المقدسة

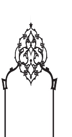
ص.ب (٢٣٣)

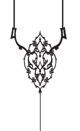
هاتف:٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥ـ١٦٣

www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

الكتاب: هل التوبة مدعاة لارتكاب المعاصي أم لإصلاح النفوس؟.
تأليف: حسن الهاشمي.
الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.
التدقيق اللغوي: عمار كريم السلامي.
التصميم: علاء سعيد الأسدي.
الاخراج الطباعي: محمد قاسم النصراوي.
المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر.
الطبعة: الأولى.
عدد النسخ: ٢٠٠٠ .

جمادى الاولى ١٤٣٦-آذار ٢٠١٥

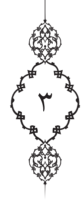


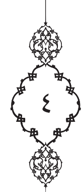
توطئة

قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله: يا رسول الله إني أذنبت، فقال: «**استغفر الله**»، فقال: إني أتوب ثم أعود، فقال: «**كلما أذنبت استغفر الله**»، فقال: إذن تكثر ذنوبي، فقال: «**عفو الله أكثر، فلا تزال تتوب حتى يكون الشيطان هو المدحور**».(ارشاد القلوب للديلمي ج١، ص٤٦).

هذا الصراع بين الانسان وشهواته، هو الذي يحدد مصيره إلى الحسنى والنجاة فيما إذا قرر التوبة والندامة على ما ارتكب من معاصٍ وآثام، أما اذا بقي في شراك النفس الأمارة بالسوء ووقع في مهاوي الشيطان إلى آخر حياته دون أن يتدارك نفسه بالتوبة والاستغفار كان مصيره الهلاك والخسران المبين.

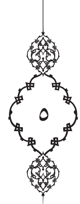


ومـن الحديث السابق يتصور بعض الناس أن تشريع التوبة والدعوة إليها إغـراء لارتكاب المعاصي، وتحريض على ترك الطاعة، ولكن هذا التوهم باطل، فإنه لو كان باب التوبة موصداً في وجه العصاة، واعتقد المجرم بأن العصيان لمرة واحدة يدخله في عـذاب الله، فلا شك في أنه سيتمادى في اقتراف السيئات وارتكاب الذنوب، معتقداً بأنه لو غيّر حاله إلى الأحسن لما كان له تأثير في تغيير مصيره، فلأي وجه يترك لذات المحرمات فيما يأتي من أيام عمره؟ وهذا بخلاف ما لو اعتقد بأن الطريق مفتوح والمنافذ مُشرعة، وأنه لو تاب توبة نصوحاً ينقذ نفسه من عذاب الله سبحانه، فهذا الاعتقاد يعطيه الأمل برحمة الله تعالى، ويترك العصيان في مستقبل أيامه، فكم وكم من الشباب عادوا إلى الصلاح بعد الفساد في ظل الاعتقاد بالتوبة، فإنهم لولا ذلك الاعتقاد





لأمضوا لياليهم في المعاصي بدل الطاعات، فنرى مثلاً في التشريعات الجنائية الوضعية، قوانين للعفو عن السجناء المحكومين بالسجن المؤبد إذا ظهرت منهم الندامة والتوبة وتغيير السلوك، فتشريع هذا القانون سيكون موجباً لإصلاح السجناء، لا تقوية روح الطغيان فيهم، فالإنسان حيٌّ برجائه، ولو اكتنفه اليأس من عفو الله ورحمته لزاد في طغيانه ما بقي من عمره، هذا ما أردنا تبيانه في هذا البحث الذي يتناول التوبة وأقسامها ومعناها وشرائطها والحكمة من تشريعها لما لها الأثر البالغ في تنقية النفوس من الشوائب التي قد تعلق بها اثناء ما يكتنفها من ملوثات الدنيا الفانية.

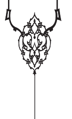


هل التوبة إلى الله واجبة؟

التوبة: هي الرجوع من الذنب بالقلب واللسان والجوارح، وترك المعاصي في الحال، والعزم على عدم المعاودة في المستقبل، وتدارك ما يمكن تداركه.

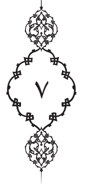
والتوبة واجبة على الإنسان فوراً عقلاً وشرعاً، فالعقل يحكم بوجوب الاحتراز عن الذنوب التي تدخل العبد في المهالك، وتضيع عليه ثواب الآخرة، أما شرعاً فقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾. (الشورى: ٢٥). التوبة هي الرجوع عن الذنب الذي يقع فيه الإنسان جراء تسويفات الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء، بعد أن يدرك أنه بفعل هذا الذنب قد أبعد نفسه عن رضوان الله تعالى، وحتى لا يصاب عباد الله تعالى باليأس، ويلاحقوا بعذاب الضمير إلى يوم القيامة، فتح الله برحمته باب التوبة





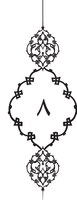
ليعود من خلاله الإنسان إلى نعيم الرضوان الإلهي، بعد أن أخرج نفسه طوعا منه، وهنا تتجلى الرحمة الإلهية لأهل الدنيا: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾. (الزمر: ٥٣).

كم هذه الآية فيها من اللطف الإلهي حيال عباده، وكم هي تفصح عن رحمة ورأفة الله تعالى بعباده، وكم تفتح من أبواب الأمل أمام العباد المذنبين الذين أسرفوا في ذنوبهم وأثقلت تلك الذنوب كواهلهم، فجاءت الآية بلسما لجراحات ضمائرهم، وملائكة رحمة تخفف عنهم وطأ الذنوب والمعاصي وتفتح أمامهم أبواب الرحمة الإلهية التي تبقى مفتوحة أبدا تنادي بأصحاب الموبقات هل من نادم، وهل من تائب، وهل من راجع إلى فطرته وربه خاليا من تداعيات الذنوب ومخاطر الشرور؟!

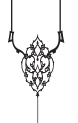


إنها الرحمة الإلهية قلما تجد لها نظيرا في العالم، بل إنها محصورة بذاته المقدسة؛ لأنه أرأف بالعباد من الأم بأطفالها، وهو الذي سبقت رحمته غضبه، لا يزال يهتف بالعبد أن مجال التوبة مفتوح لك ما دمت على قيد الحياة، فاليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل، وعليه فإنه لا يقنط ولا ييأس من رحمة الله إلا القوم الظالمون.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له**». وأما في وجوب التوبة على الفور فلا شك فيه، لأن ضرر الذنوب يجب دفعه على الفور فلا مجال للتسويف والتأخير، وعن أمير المؤمنين عليه السلام في أحد كتبه إلى بعض أصحابه: «**فتدارك ما بقي من عمرك، ولا تقل غداً أو بعد غد، فإنما هلك من كان قبلك بإقامتهم على الأماني والتسويف، حتى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون**». وقد قال الإمام

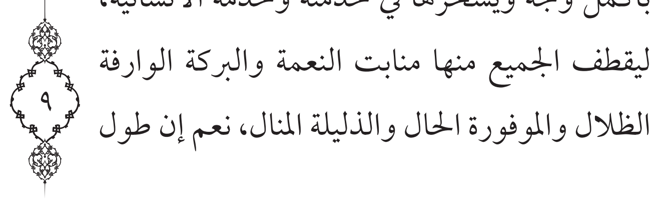






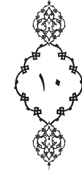
الصادق عليه السلام: «**تأخير التوبة اغترار، وطول التسويف حيرة**».

وطالما أن سيوف الأجل مشرعة على الرقاب ولا مناص ولا خلاص منها طال الأمد أم قصر، ليجعل كل واحد منا شعار (لا للتسويف نعم للتوبة المبكرة) نصب عينيه، وليعمل جاهدا لتدارك الأمر وتصليح ما انهدّ من بنيان قبل فوات الأوان، حقا أن من يؤخر التوبة مغرور لا محالة، وهذا الغرور سيرميه في متاهات الحيرة والضياع، فإنه وكما جاء في الحديث الشريف" اغتنموا الفرص فإنها تمر مر السحاب" لعل الفرصة التي تمر عليك اليوم لا تمر عليك غدا، فالعاقل الحصيف هو من يستغل فرص الخير بأكمل وجه ويسخرها في خدمته وخدمة الانسانية، ليقطف الجميع منها منابت النعمة والبركة الوارفة الظلال والموفورة الحال والذليلة المنال، نعم إن طول



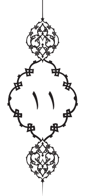
التسويف هو من ايحاءات الشيطان الذي يلقي في اوساط أقرانه هذه الخصلة المدمرة معتبرا اياها نزهة ولكنها غصة وحيرة، توقع صاحبها في المهالك ولا طريق وقتئذ للرجوع إلى جادة الصواب وهو الهلاك بعينه، أما الذي يتدارك الأمر ويقف عند ذنبه موقفا صارما بمجرد صدوره منه، فإنه قد لبى نداء ربه في الإنابة والرجوع إليه كلما وقع في وعثاء طريق أو طمس في رمضاء سفر، ويكون حينئذ كمن ولدته أمه لا ذنب يثقل كاهله ولا تبعات تنغص عليه ولا هم يحزنون، بل هم التائبون المنعمون بنعمة ربهم وهم الوافدون على الجليل بدون زاد إلا من خصال رحمته وجليل كرمه وعفوه وصفحه عن المذنبين التائبين الأوابين.

لقد دعانا الله إلى التوبة جميعا من ذنوبنا، ووعدنا بأن يقبل توبتنا مع تحقق شروطها ووعدُ الله حق ولا



يخلف الله ما وعد به عباده حيث قال: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا المؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾. (النور: ٣١)

وكذلك حثنا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عليها كما روي عنه: «**توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في كل يوم مئة مرة**» (ميزان الحكمة، الحديث ٢١٣١) وهذا تعليم من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لنا أن نكون في حالة التوبة إلى الله دائما وحتى لو لم نرتكب الذنوب، فإن الإنسان مهما علا شأنه يظلّ مقصرا أمام ربّه عن أداء شكر النعم التي أنعم بها عليه، فليستغفرِ الله عن التقصير في أداء شكرها راجيا منه العون والتوفيق.





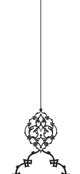


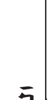
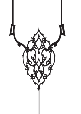
ما الفرق بين التوبة والاستغفار؟

التوبة: تتضمن أمراً ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، فالندم على الماضي والإقلاع عن الذنب في الحاضر والعزم على عدم العودة في المستقبل.

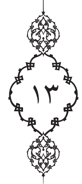
والاستغفار: طلب المغفرة، وأصله: ستر العبد فلا ينفضح، ووقايته من شر الذنب فلا يعاقب عليه، فمغفرة الله لعبده تتضمن أمرين: ستره فلا يفضحه، ووقايته أثر معصيته فلا يؤاخذ عليها، وبهذا يعلم أن بين الاستغفار والتوبة فرقاً، فقد يستغفر العبد ولا يتوب كما هو حال كثير من الناس، لكن التوبة تتضمن الاستغفار.

ومن أسماء الله الحسنى: التواب، قال تعالى: ﴿**فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾. (البقرة: ١٦٠) قال أهل التفسير: أتوب عليهم بالقبول والمغفرة، وأنا التواب الرحيم المبالغ في قبول التوبة.



وأما الاسمان العظيمان فيأتيان في القرآن الكريم في الغالب تعقيبا على سياق يتضمن معنى يناسب معناهما من التوبة والمغفرة والرحمة، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿**فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾. (البقرة: ٣٧). وكما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾.(يوسف: ٩٨).في الآتين الكريمتين تأكيد على أن الله تعالى يقبل التوبة من عباده ويستر عنهم ذنوبهم لئلا يفتضح أمرهم، وهذا هو ذروة العطاء والرحمة والشفقة، أن يتوب عليك ويستر أمرك حفاظا على كرامتك وشخصيتك ومهابتك بين الناس، لذلك أردف كلمة (الرحيم) بعد التوبة والمغفرة ليبين الله تعالى كم هو رؤوف بالعباد، وكم هي أبوابه مشرعة بوجه المسيئين للعودة إلى رشدهم والاحجام والاقلاع عما تسول لهم انفسهم من



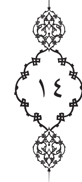


الايغال في الذنوب والمعاصي!.



تارة الرحمة تأتي رديفة التوبة وأخرى تأتي رديفة الاستغفار، حيث إن قبول التوبة من العبد المذنب هي لطف ورحمة وشفقة من قبل الباري عزّ وجلّ إزاء من صدرت منه خطايا وذنوب على حين غفلة من أمره، ولكنه قرر على الفور الرجوع إلى الرحمة الإلهية لأنها تسع كل شيء، والأدهى من ذلك والأدهش أن الله تعالى وايغالا في الرحمة والشفقة تراه علاوة على قبول توبته يستر على العبد لئلا يُفضَح أمره بين الأشهاد في الدنيا والآخرة، ولا عجب في ذلك فإن من بين أسمائه تعالى (ساتر الذنب وكاشف الكرب) ولا يزال الإنسان يسبح في غمرات الذنوب حتى يستفيق منها بالتوبة والاستغفار، فإنه يتوب إلى رب رحيم يعلم سلفا أنه لا يقبل توبته الخالصة فحسب، بل يستر عليه ويحفظ سره ويأمن روعه ويوصله مأمنه





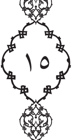



حيث الدعة والأمان والنخل والريحان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، فلا مجال للتكذيب وهو يرفل بنعمتي التوبة والاستغفار ويتمتع بأجوائها السمحة وأديمها الأخاذ وروابيها الوارفة الظلال والدائمة الخضرة والثمار.

انّ احدى النعم التي منّها الله سبحانه وتعالى على البشر هي نعمة التوبة وقبولها وهذا دليل الرحمة الواسعة واللطف الواسع لله جل جلاله، إذن التوبة معناها العزم على ترك الذنب والعودة الى الله سبحانه وتعالى والاعتذار اليه، فعلى سبيل المثال: التوبة هي خلع الثوب القذر من البدن وارتداء ثوب طاهر ونظيف او غسل البدن من التلوث والقذارة او تنظيف المكان وفرشه بفراش جديد.



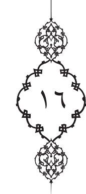
متى تُقبل التوبة؟

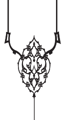


إن التسويف بالتوبة عمل لا يصب في مصلحة

الإنسان المؤمن، لأن الإنسان لا يدري متى تسقط ورقته، وينقضي أجله ولا يضمن أن يخرج الزفير بعد الشهيق حين تنفسه، فكيف تطاوعه نفسه أن يؤخر التوبة والحال هذه، فلا بد من الإسراع إلى التوبة في أقرب الفرص حتى لا يدركه الموت وهو على معصية الله جل جلاله، فعن الإمام علي عليه السلام: «**مسوّف نفسه بالتوبة، من هجوم الأجل على أعظم خطر**». (مستدرك الوسائل، ج٢١، ص١٣٠)، والمسوف هو من تقول له نفسه دعك من الأمر الآن وسوف تتوب غداً، وعنه عليه السلام في حديث آخر: «**لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجئ التوبة بطول الأمل**». (بحار الأنوار، ج٦، ص٣٧).

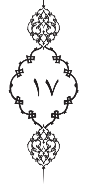
تقدم معنا أن الله قد وعد عباده بقبول توبتهم وقد أكدت الآيات الكثيرة على هذا المعنى وعلى هذا الوعد كما في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ**



التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. (التوبة: ١٠٤).

ولكن ليس كل من طلب التوبة لا بد وأن يقبلها منه الله تعالى، فهناك موارد لا يقبل الله تعالى التوبة فيها، فالإنسان الذي يفعل الذنب ويقدم على معصية الله نتيجة جهله ووقوعه أمام وساوس الشيطان، ثم بعد ذلك يلتفت إلى نفسه وأنه قد وقع في الخطأ الجسيم فيقدم على التوبة بصفاء روح وإخلاص نية، مثل هذا الشخص تقبل توبته، ولكن هنالك أشخاص يتجرؤون على الله ليل نهار ولا يراعون لأحد من حرمة، ويستمرون على هذا المنهج طوال حياتهم ثم عندما تنزل بهم نازلة الموت تراهم يقولون تبنا إلى الله كما فعل فرعون عندما عاين الموت والغرق فهؤلاء لا تقبل توبتهم، قال سبحانه وتعالى: **﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ**



يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ۞ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً﴾. (النساء: ١٧ ١٨).

فرق بين من يعمل السوء بجهالة وبين من يعمل السوء بترصد وسبق اصرار، كما هو الفرق بين قتل الخطأ وقتل العمد، إذ أن الأول يمكن تداركه بالدية والاسترضاء والثاني لا يمكن تداركه إلا بالقصاص من الجاني للإصلاح والقضاء على بؤر الفساد في المجتمع لا للتشفي والانتقام، لذلك عبر القرآن الكريم بالقصاص أنه الحياة بعينها ولولاه لما استقام نظام ولا عرف للقسط والعدل والحق طعم ولا مذاق، وهكذا فإن الشهوات والنفس الأمارة بالسوء ووساوس الشيطان ربما تجر الإنسان إلى



الخطيئة والذنب والهفوات، ولكنه سرعانما يتدارك نفسه وتتغلب جنبة التقوى فيه على جنبة الفجور، فيرجح ومن خلال التوبة كفة التقوى والايمان نادما على ما بدر منه من خطايا وذنوب سواء كانت بينه وبين ربه أم انتهاكات بينه وبين العباد، فيقرر مادام هو في الدنيا من تصفية حساباته مع ربه بالعبادة والاستغفار ومع الناس بإيفائهم حقوقهم المادية والمعنوية، فمن حكمة الله تعالى وجزيل كرمه ولطفه بالعباد أنه يتقبل التوبة من هكذا تائب نادم راجع إلى ربه من قريب، وهذا بخلاف من أمضى حياته بالهتك والمعاصي والتطاول على حقوق الآخرين والتمادي على الحرمات والتراخي بحق العبادات والمعتقدات، فإنه وبأعماله المشينة تلك لا يؤمن بوجود الله تعالى وحتى إذا كان مؤمنا فإن إيمانه لا يعدو لقلقة لسان ليس إلا، إذ أن مظهره المتهتك يدل على مخبره المتمرد،





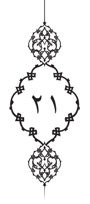


ولو كان لديه شيء من الإيمان لبان إلى الوجود، والحال أنه خالي الوفاض من مقومات الهداية والتوبة والانكسار، ومثل هكذا انسان الذي جرد نفسه من القيم والأخلاق كيف يرجو النجاة بأمور هو لا يعتقد بها أصلا إلا بعد أن تداهمه المنية؟! وهذا اعتقاد مصلحة وليس اعتقاد ضمير، وهو مرفوض من سائر الناس فضلا عن الخالق المتعال الذي هو أقرب للنوايا وما تبطن النفوس من حبل الوريد بالنسبة إلى الإنسان!.

وهناك نموذج آخر لا تقبل منه التوبة بحال وهو المنكر الجاحد للدين، والكافر بالله بعد أن عرف الإيمان بعقله وأدرك أنه الحق من الله ثم أنكره وكفر به فهذا الصنف من الناس لا تقبل منه التوبة كما تخبرنا الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُم**﴾. (آل عمران: ٩٠).



والسؤال الذي يطرح هنا لماذا لا يقبل الله تعالى توبة الظالمين والكافرين على حد سواء؟ قلنا سابقا بأن إحدى معطيات التوبة الندم عما بدر منه من ذنوب ومعاصٍ وموبقات في الماضي القريب، والحال أن الظالم والكافر الجاحد لم يبدر منه ندم ولا توجد الإرادة الكافية لتصحيح مسيرته المنحرفة بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى، وإنما أقدم على التوبة عندما داهمته المنية وحاصره أجله المحتوم، فلا فرار حينئذ من حكومة الجبار، فيعمد إلى التوبة ترضية لفطرته العمياء ونفسه الظلماء وخيلائه الصماء من أن ينال نعيم الآخرة الذي طالما أنكره في الهناء عندما كان سليما معافى يعيش في راحة ورخاء، وهذه التوبة أشبه ما تكون ذر الرماد في العيون، وهم في عملهم هذا يخادعون أنفسهم، إذ أن الله تعالى لا يخدع في جنته، بل إنها للمتقين المخلصين، والمؤمنين الذين قد تبدر منهم بعض الهفوات ولكنهم يتداركونها بالتوبة







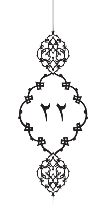

والاستغفار والإنابة إلى الله المتعال.

شرائط التوبة

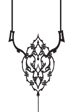
التوبة الحقيقية لا تقع من العبد عن الذنب بمجرد الاستغفار ولقلقة اللسان، وإلا فكل الناس تلجأ إلى المعاصي ليل نهار ثم تقول عقب كل ذنب أستغفر الله وأتـوب إليه وتنتهي المسألة، وحينئذ تنعدم الفائدة من التشريع، ويصبح الإسلام انموذجاً اسمياً لا يحقق الساعدة للأنسان، بل لا بد لقبول التوبة من شروط قد اختصرها الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام حينما سمع رجلا يقول أستغفر الله فقال له: «**ثكلتك أمك أو هكذا الاستغفار؟ إن الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان:**

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.







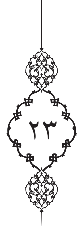
والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله سبحانه أملس ليس عليك تبعة.

الرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها.

الخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي تنبّت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

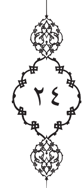
السادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية». (الكافي، ج٢، ص٤٣١).

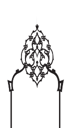
المعاني الستة المذكورة آنفا تنبئ عن أن المذنب قد ندم فعلا عما اقترفه من منكرات ومعاصٍ حيال الله تعالى والنفس والعباد والبلاد، وكما هو واضح أن الإنسان يأتي في هذه الدنيا وصحيفته بيضاء ناصعة تتلألأ بالعقل الباطني وما يحمله من فكر وتعقل وحكمة وهي واقعة تحت فيوضات ومصابيح



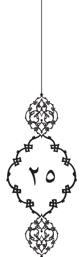
الدجى من أنوار الهداية في العقل الظاهري المتمثلة بالكتاب العزيز والرسول الأعظم والعترة الطاهرة، بيد أن الكثير منا يلوث هذه الصحيفة بقاذورات الذنوب حتى يصيرها شيئا فشيئا سوداء حالكة، ولكي ترجع إلى بارئها لابد من غسلها وتطهيرها حتى تتسامى إلى سطوعها الأول، وهذه المعاني الستة بمثابة المطهر الذي يجلي قلوب البشر الصائغة ويجعلها بأداء حقوق الله تعالى وحقوق الناس وحقوق النفس سائغة لامعة.

أليس الأجدر بالإنسان الحر الغيور أن يصفي حساباته بينه وبين نفسه وبينه وبين ربه وبينه وبين العباد في هذه الدنيا قبل أن تخرج روحه من جسده؟! أليس الأجدر بالإنسان العاقل الحكيم أن يجعل من الدنيا قنطرة للآخرة يعبر من خلالها بكل أمان وسلام واطمئنان؟! أليس الأجدى بالإنسان الناجح





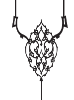

أن يأخذ من الدنيا بمقدار ما يعيش فيها ويأخذ من الآخرة بمقدار ما سيعيش فيها، وأن لا تلهيه الدنيا الفانية عن الآخرة الباقية؟! أليس الأفضل والأنجع أن يرتقي الإنسان سلم المجد في الدنيا إلى جنة عرضها السماوات والارض أعدت للمتقين؟! هذه الأسئلة وغيرها تبحث عن إجابة دقيقة ولا يمكن العثور عليها إلا في دهاليز التوبة والرجوع إلى الخالق الحنان المنان، الذي بحنانه يحتضن التائبين وبمنه وفضله وكرمه يستقبل الهائمين، ومن يستقبل المذنبين غيره تعالى؟! ومن للعاصين غير رحمته ورأفته وفضله وكرمه؟! قد يقول قائل: إن هذه الشروط الستة التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام ثقيلة على الانسان لا يقدر على أدائها. والحال أنها تتقاطع مع ميوله وشهواته وربما تطلعاته الدنيوية المتشعبة المنال والنوال! وطالما توعز له النفس الأمارة بالسوء بالتسويف وتزرع في



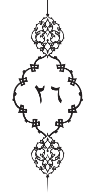


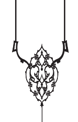
مخيلته آمالاً وآمالاً.

ولكن الإرادة الصلبة التي بين جنبيه يمكن لها أن تقطع دابر التسويفات والأخذ بمبادرة العمل الجاد قبل فوات الأوان، وهذا القرار لا يمكن لأي أحد أن يأخذه إلا من امتحن الله قلبه بالإيمان فوجده عند الشدائد صابرا وعند المحن والبلاءات محتسبا وعند الملمات حاضرا، وقليل هم أولئك النفر من الناس الذين تكون عندهم تلك الجرأة والصراحة بالاعتراف بالذنب واستيفاء الحقوق المادية والمعنوية التي في ذمته حيال الله تعالى وسائر الناس، وهذه الوقفة مهما تكتنفها من صعوبات بيد أنها أهون عليه من أهوال وتبعات الذنوب في الآخرة، وطالما غفل معظم الناس عن هذه الحقيقة أن الدنيا وما يلفها من صعوبات ومتاعب لا شيء أمام أهوال يوم القيامة!



وهذا ما أشار إليه الإمام الكاظم (عليه السلام) عندما وقف



على قبر وقال: «**إن شيئا هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله، وإن شيئا هذا أوله لحقيق أن يخاف من آخره**».

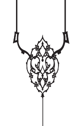
ما هي التوبة النصوح وما هي شروطها؟

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ان التوبة النصوح هي الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله ثم لا تعود إليه أبداً**». وقيل لأمير المؤمنين عليه السلام: ما التوبة النصوح؟ فقال عليه السلام: «**ندم بالقلب واستغفار باللسان والقصد على أن لا تعود**». وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**التوبة النصوح هو أن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل**».

وفي تفسير (الأمثل للشيخ مكارم الشيرازي ج١٨، ص٤٠٧) قال: ومن هذه التفاسير القول بأن التوبة النصوح يجب ان تتوفر فيها أربعة شروط: الندم الداخلي، الاستغفار باللسان، ترك الذنب والتصميم على الاجتناب في المستقبل.





وقال البعض الآخر بأنها -أي التوبة النصوح- ذات شروط ثلاثة: الخوف من عدم قبولها، والأمل بقبولها، والاستمرار على طاعة الله.

أو أن التوبة النصوح التي تجعل الذنوب دائماً أمام أعين أصحابها ليشعر الإنسان بالخجل منها.

أو انها تعني ارجاع المظالم والحقوق إلى أصحابها وطلب التحليل وبراءة الذمة من المظلومين والمداومة على طاعة الله.

أو هي التي تشمل على أمور ثلاثة: قلة الأكل، قلة القول، قلة النوم.

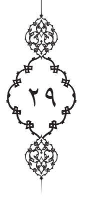
أو التوبة النصوح هي التي يرافقها بكاء العين واشمئزاز القلب من الذنوب وما إلى ذلك من فروع التوبة الواقعية وهي التوبة الخالصة التامة الكاملة.

ولعل اسمها يدل عليها فهي من ثمرات النصح






والارشاد، وهي صفة مبالغة بقبول النصح والتوبة الحقة يستصحبها الندم وعدم العود على الذنب مرة أخرى والتوجه الخالص لله مستوفيا الحقوق التي بعهدته حيال كل من له تبعة عليه من العباد، حتى يكون رجوعه خاليا من النواقص لا تشوبه أي شائبة ولا تعترض طريقه أي منقصة، إنها بحاجة إلى إرادة صلبة قوية وإيمان راسخ وعزيمة متأصلة تأصل عقيدة الشهيد حينما يضحي بكل شيء في سبيل الحق والقسط والعدل، إنها تعبير صادق تحكي قصة الرجوع إلى الحق والندم على ما فات من جولات الباطل الزائفة، إنها سفر خالد يطوي من خلاله السائح الفيافي والجبال والوديان لا يعبأ بما يواجه من مخاطر الطريق ووعثاء السفر ووحشة الماضي السحيق، فإنه يتحمل كل تلك المشاق بقلب مفعم بالإيمان وإرادة صلبة قوية لا تزحزحها رياح عاتية





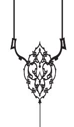



ولا تنال منها حتى سيول جارفة.

إنها المعرفة الحقة والتعاطي الواعي مع الحقوق والواجبات، وما يحتم على العبد من التمتع بالحقوق والالتزام بالواجبات، فكانت المرونة حيال ضريبة تحمل الخوض في حلبة الباطل بكل سلاسة وبدون أدنى كلل أو ملل، لما يدرك من أن الثمار التي من المؤمل أن يقطفها حلوة وجديرة بما يحمل من أعباء ومتاعب ومصاعب، لابد من تخطيها للوصول إلى تلك الثمار التي فيها رضا النفس وقبل ذلك رضا المعبود المتنعم المتفضل على العباد، إذ وفر لهم الدواعي والأسباب وشرع أمامهم سبل النجاة وذلك من خلال الدلوف إلى واحة التوبة النصوح المباركة، وبعد هذا يتجلى الفرق بين التوبة النصوح والتوبة العادية، إذ أن الأولى مصحوبة مع الندم وعدم العود على الذنب واستيفاء الحقوق مطلقا والثانية قد لا تكون كذلك.



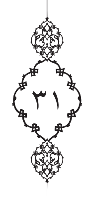


آثار التوبة

إنها الرجوع الى الدوحة المباركة دوحة الطهارة والبركة والرحمة والمغفرة والرضوان الإلهي، يا لها من دوحة خضرة نضرة باصرة ناضرة، تصرخ فينا هل من مدلف إلى روابيها العطرة ومروجها العابقة ودهاليزها المزهوة أريجا وعطرا ونسيما عليلا، تسكن إليه النفس المثخنة بالجراح، جراح الماضي الأسيف الذي لف الإنسان على حين غفلة من أمره، ولكنها الرحمة الإلهية هي دوما بانتظار النادم المسكين الذي يجد فيها للأمل معنى خاصا وللإنابة طعما فريدا يرفل فيها مسرورا جذلا، تغمره رحمة لا يزال يتفيأ بنسائمها ويتضوع بأريجها ما دام هو في فلكها يسبح وفي أمصارها يدور وفي أرجائها يتجدد ويتمدد ويسود.

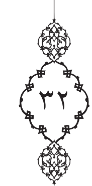
كيف لا وهو قد شد الرحال إلى بارئه ومصوره



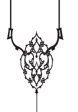
وخالقه، شد الرحال إلى من هو ألطف به من نفسه عليه، إنها فعلا رحلة جديرة بالاقتفاء، لأنها رحلة العمر البهية تمر مر السحاب، فعلى العاقل اقتناصها وإلا فإن الندم سيلفه لفا ولا يستطيع الخروج من شراكها، ووقتئذ لا ينفع معها ندم نادم ولا نصيحة ناصح ولا شماتة شامت، وبعد أن يحقق الإنسان التوبة بشروطها الآنفة الذكر، فإن الله تعالى سيقبلها منه وتترتب على ذلك الآثار التالية:

١. تطهير القلب: فيصبح القلب نقيا ناصعا بعد أن تزول عنه آثار المعاصي، فعن النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**». (ميزان الحكمة، الحديث ٢١١٧).

وعن الإمام علي عليه السلام: «**التوبة تطهر القلوب وتغسل الذنوب**». (غرر الحكم، ح ١٣٥٥).



٢. نزول الرحمة الإلهية: لأن الله سبحانه حينما

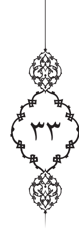



تطلب التوبة منه ويقبلها منك فإنه سينظر إليك بعين الرحمة وهو أرحم بعباده من الأم بولدها، وعن الإمام علي عليه السلام: «**التوبة تستنزل الرحمة**». (مستدرك الوسائل، ج١٢، ص١٢٩).

٣. ستر الله على التائب: حيث ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**من تاب، تاب الله عليه، وأمرت جوارحه أن تستر عليه، وبقاع الأرض أن تكتم عليه، وأنسيت الحفظة ما كانت تكتب عليه**». (ميزان الحكمة، الحديث ٢١٨٣).

فانظر إلى رحمة الله بعباده ومدى ستره عليهم لدرجة أنه ينسي الحفظة وينسي الأرض هذا الذنب بعد التوبة، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة**». (ميزان الحكمة، الحديث ٢١٨٤).

٤. تبديل السيئات حسنات: روعة الرحمة الإلهية







تتجلى على التائب الحقيقي حين يبدل الله سيئاته حسنات قال تعالى: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَّحِيما**﴾. (الفرقان: ٧٠).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**أوحى الله إلى داود النبي عليه السلام: يا داود إن عبدي المؤمن إذا أذنب ذنبا ثم رجع وتاب من ذلك الذنب واستحى مني عند ذكره غفرت له، وأنسيته الحفظة وأبدلته الحسنة ولا أبالي وأنا أرحم الراحمين**». (ميزان الحكمة، الحديث ٢١٨٥).

٥. محبة الله: يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المتَطَهِّرِين**﴾. (البقرة: ٢٢٢).

٦. غفران الذنوب، قال تعالى:﴿**إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا**﴾. (الفرقان: ٧٠)







وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**التوبة تجبّ ما قبلها**».

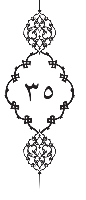
٧. نزول الرحمة على التائب، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**التوبة تستبدل الرحمة**».

٨. طهارة القلب: قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**التوبة تطهر القلوب وتغسل الذنوب**».

ما هي الحكمة من تشريع التوبة؟

لقد دعا القرآن الكريم وحثّ المؤمنين في آيات كثيرة على التوبة والإنابة إلى الله سبحانه، وحينئذ يطرح السؤال التالي نفسه: ما هي الحكمة من تشريع التوبة؟ وهل يا ترى أنّها تكون سبباً لجرأة الإنسان ووقاحته أم لا؟ يقول سبحانه: ﴿...**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.(النور: ٣١)

إنّ هدف التوبة بمعنى التوجّه إلى الله سبحانه لا ينحصر في الندم على الذنب والمعصية، بل انّ

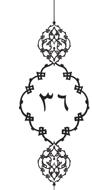







عودة الأنبياء والأولياء إلى الله سبحانه تشملها الآية الداعية إلى العودة إلى الله والتوبة بصورة مطلقة والتي طرحت التوبة باعتبارها أصلاً كليّاً وعامّاً.

وبالالتفات إلى هذا الوعد والعناية الشاملة، وقع البعض في حيرة وإشكال في فهم حكمة هذا التشريع، ولذلك أطالوا التفكير في المسألة وخلصوا إلى أنّ: الإعلان عن قبول التوبة يمثّل في واقعه دعوة إلى ارتكاب الذنوب واقتراف المعاصي، إذ بإمكان العباد الاتّكاء على هذا الأصل واقتراف المعاصي على أمل التوبة من الذنوب في المستقبل، لأنّ الباب مفتوح أمامهم ولا داعي إلى إلزام أنفسهم من الأوّل بالطاعات والعبادات، بل لهم أن يلتذّوا بما حرّم الله فترة من عمرهم ثمّ بعد ذلك يتوجّهون إلى الله بالتوبة والإنابة والله غفور رحيم.

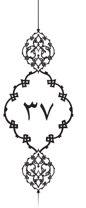


نكتفي هنا في البحث عن حكمة وفلسفة تشريع



«التوبة» وبالطريقة التالية: من الصفات البارزة التي وصف القرآن الكريم بها الأنبياء هي صفتي الرجاء والأمل بالوعد والرحمة الإلهية والخوف والخشية من عذابه سبحانه، فهم عليهم السلام يعيشون بين الخوف والرجاء، ففي الوقت الذي يستشعرون حالة الخوف من عذاب البرزخ ترنو أبصارهم إلى جنة الخلد التي وعد الله بها المتّقين، وقد عبّر سبحانه عن هذه الخصلة الحميدة للأنبياء والأولياء بقوله: ﴿...**وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعين**﴾.(الأنبياء: ٩).

وأنت إذا لاحظت آيات الذكر الحكيم تجد أنّها دائماً تتحدّث عن البرزخ والعذاب وتقرنه بالحديث عن الجنة والنعيم الإلهي، انّ هذا التقارن يحكي أنّ مجال التربية والإصلاح وتهذيب أخلاق الإنسان وسوقه إلى الله وإلى الخصال الحميدة لا يتم من خلال التخويف والإنذار والتهديد فقط، بل لابدّ أن







تنمّى إلى جانب ذلك حالة أُخرى وهي حالة بعث الأمل والرجاء في النفوس، ويقال للعباد: إن كان الله سبحانه عذاب ونار فإنّ لديه أيضاً جنة ونعيماً لكي لا يحوم الإنسان حول الرذائل والقبائح ولا ينفض عن كاهله غبارها ودنسها فيما إذا كان قد ارتكب في يوم ما شيئاً منها، ولا ييأس ولا يقنط من رحمة الله الواسعة، ويعيش حياته بين الرجاء والخوف.

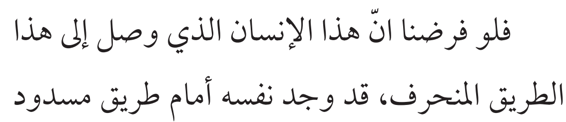
ولقد وصف القرآن الكريم الأنبياء والرسل بأنّهم المنادون بالخوف والرجاء وبالعذاب والرحمة حيث قال سبحانه: ﴿**كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ**...﴾.(البقرة: ٢١٣). إلى هنا اتّضح وبصورة إجمالية دور الأمل والرجاء في حياة الإنسان، وهذه المسألة بدرجة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى أكثر من ذلك، ولكن المهم هو التذكير بأنّ الوعد بقبول التوبة وتحت شروط خاصة،



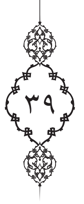



يُعدّ فرعاً من فروع بعث الأمل في نفس الإنسان المذنب والعاصي، والمتمرّد على القوانين الإلهية، بأن يعيد النظر في مواقفه وما ارتكبه من الذنوب والمعاصي وأن يصحّح مسيرته ويطهر سريرته وذاته ويتحوّل إلى إنسان مستقيم الطريقة مرضي الخصال وليست التوبة كما تصوّرها المستشكل محفزاً وباعثاً على الذنوب والتمرّد على القوانين والأحكام الإلهية، وتوضيح ذلك:

لا ريب أنّ الإنسان غير المعصوم، وخلال مسيرة حياته الطويلة وتحت ضغط طغيان وجموح الغرائز والميول النفسانية، يرتكب سلسلة من المعاصي ويقع في الكثير من المخالفات، ممّا يؤدّي إلى أن تسودّ صحيفة أعماله بالكثير من الذنوب والموبقات.



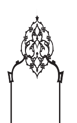
فلو فرضنا انّ هذا الإنسان الذي وصل إلى هذا الطريق المنحرف، قد وجد نفسه أمام طريق مسدود

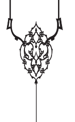





وانّ الجسور بينه وبين ربّه قد قطعت جميعاً، وانّ باب التوبة والإنابة قد أُوصد في وجهه، ولم تترك له فرصة العودة إلى الطريق القويم، ماذا تراه سيفكّر حينئذ؟ ممّا لا ريب فيه أنّه وتحت حالة اليأس هذه يفكر بأنّه لم يبق أمامه إلا طريق واحد، وهو استغلال ما بقي من عمره في الملذّات والاستجابة للغرائز والميول مادام يشعر بأنّه معذّب على كلّ حال، فلماذا لا يتنعّم في الدنيا على أقلّ تقدير؟ ولا ريب أيضاً أنّه لا يفكّر ولو لحظة واحدة في إصلاح نفسه، لأنّه يعلم أنّ طريق الإصلاح قد سدّ في وجهه، فعليه مواصلة طريق الموبقات، ولكن الأُسلوب الصحيح أن يفتح باب التوبة أمام هذا الإنسان ليعتقد أنّ الله القهّار والمعذّب والمعاقب هو نفسه الله الغفور الرحيم ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السيِّئاتِ**﴾(الشورى: ٢٥).



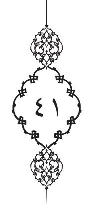


ويعتقد انّه فيما إذا قرر إصلاح نفسه والعودة إلى طريق الصالحين ومنهج المؤمنين ونفض غبار الذنوب ودنسها وتركها إلى غير رجعة، وأن لا يعصي الله أبداً ولا يخالف له أمراً، فإنّ الله سيعفو عنه ويغفر له ويتجاوز عن سيّئاته، وحينئذ سيكون مصيره مصير الصالحين والطاهرين، فلا ريب أنّه سيقدم على اتّخاذ قرار العودة والإنابة إلى الله والتوبة إلى خالقه، ويسعى إلى إصلاح نفسه ويكون من المتّقين.

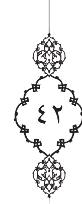
إنّ شعاع الأمل هذا سيحدث في داخل الإنسان تحوّلاً عظيماً يتغيّر على أساسه نمط سلوكه ومنهجه في الحياة إذ كلّما اقترب من الله ابتعد عن الذنوب والمعاصي والموبقات.

ومن هنا يتّضح انّ التوبة ليست هي عامل حثّ وترغيب على المعصية كما يقال، بل هي في الحقيقة من أهمّ العوامل في تقليل نسبة الذنوب والمعاصي، وكثيراً



ما يهتدي الناس المنحرفون والمذنبون في الشطر الثاني من عمرهم ويتوجّهون نحو الطهر والنزاهة وحينها تقل نسبة الجريمة والذنوب في المجتمع.

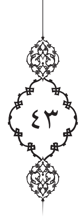
وأنت إذا ألقيت نظرة على السجون في العالم، وشاهدت الذين حُكموا بأحكام طويلة الأمد أو مدى الحياة، أو بالأعمال الشاقة، فلو افترضنا أنّ من ضمن مقررات تلك السجون: انّ السجين الذي يثبت لدى المسؤولين على السجن ندامته على ما اقترف ويصلح ذاته ويغيّر أُسلوبه في الحياة ويتحوّل إلى إنسان مستقيم الطريقة، فإنّه ستشمله قوانين تخفيف العقوبة أو يطلق سراحه، فلو علم السجناء بهذه الفقرة القانونية التي تحيي في نفوسهم الأمل في العودة إلى الحياة الحرة والتخلّص من قيود السجن وقضبانه، فلا ريب أنّهم يحاولون الاستفادة من هذه الفرصة الذهبية، وأمّا إذا لم توجد مثل هذه





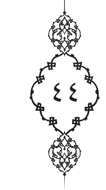
القوانين ولم يكن لتوبة السجين وندمه أيّ أثر في تغيير مصيره، فمن الواضح أنّه لا يسعى إلى تغيير حياته في السجن، بل كثيراً ما يكون عامل إزعاج للمشرفين على السجن ويتحوّل إلى إنسان مشاكس أكثر ممّا هو عليه في السابق.

ثمّ إنّنا لابدّ أن ننظر إلى الأُمور نظرة واقعية، وأن نعترف بالحقيقة وإن كانت مرّة، وهي أنّ غالبية الناس يقترفون المعاصي في حياتهم ويقترفون الذنوب و الآثام وانّ المعصومين والمنزّهين من الذنب والخطأ قليلون جداً بعدد الأصابع، وبالنتيجة نعترف بأنّ الذنوب والمعاصي لا تنفك عن الفرد والمجتمع، سواء أكان باب التوبة مفتوحاً أم مغلقا في وجوه المجرمين، ولا شكّ أنّه في مثل هذه الحالة يكون لفتح باب التوبة وتشريعه أثرٌ فاعل في سعادة الإنسان واستقراره لا في شقائه وتعاسته.

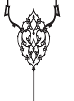


نعم إذا كان إيصاد باب التوبة عاملاً في صون الفرد والمجتمع عن الذنوب، أو كان فتح باب التوبة سبباً وباعثاً «للتجرّي»، ففي مثل هذه الحالة يفقد التشريع حكمته وتفقد التوبة فلسفتها، ولكن الواقع ليس كذلك، بل الحقيقة على خلافه، وذلك لأنّ الإنسان خُلق وهو يحمل مجموعة من الغرائز والميول القاهرة التي قد تتغلّب على قدرة العقل وسلطانه وتجرّه إلى الهاوية، وهذه ظاهرة لا يمكن اجتنابها أو إنكارها في حياة الإنسان، وحينئذ لا يكون تشريع التوبة عاملاً مساعداً في وقوع الذنب أو كثرته وانتشاره في المجتمع، بل تعدّ التوبة نافذة أمل وبريق ضوء لتخليص الإنسان من أسر الشهوات وتخليصه من الشقاء والتعاسة.

التوبة سبيل الخلاص



ان التوبة حبل النجاة، وصمام الأمان، وسبيل

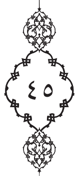


الخلاص، وهي علاج الضعف البشري، فالإنسان رُكّب من شهوة وعقل، إن غلبت عليه شهوته فالعلاج هو التوبة، تصوروا أن ديناً ليس فيه توبة ما الذي يحصل؟ بأقل ذنب يفجر الإنسان، مادام باب التوبة مغلقاً فلابد من متابعة المعصية .

حينما يقول الله عز وجل: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾. (الزمر: ٥٣).

ومع ذلك فإن الله تعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحاً**﴾.(التحريم: ٨).

أجمل ما في هذه الآية: أن التوبة النصوح تنصح بها نفسك، وأعظم نصيحة تقدمها إلى نفسك أن تتوب من الذنوب قبل فوات الأوان.



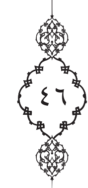
والتوبة في الحقيقة: علم وحال وعمل، فيها جانب معرفي، وفيها جانب سلوكي، وفيها جانب





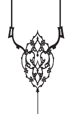

نفسي، فأنت -مثلاً- لا يمكن أن تعالج نفسك من ضغط مرتفع إلا إذا علمت أن معك ضغطًا مرتفعًا، لا يمكن أن تتوب من ذنب لا تعرف أنه ذنب، ربما تتوهمه عملاً صالحاً، إذن: تبدأ التوبة من طلب العلم، ما لم تطلب العلم فلن تتوب؛ لأن الغارق في المعاصي إن سألته: ما هذه المعاصي؟ يقول: أيّ معاص؟ فالتوبة لا تبدأ إلا من معرفة الله، ومعرفة منهج الله، فقبل أن تطلب العلم لا تطمع أن تتوب، لأن الأمور عندك مختلطة، القسم الحرام تظنه حلالاً، والفكرة التي تتناقض مع وحي الله تظنها من الدين.

هناك قصص كثيرة جداً تشير إلى أن الإنسان إن لم يطلب العلم يتوهم أن أخطاءه أشياء مألوفة، يفعلها كل الناس، وليس فيها معصية، إذن: التوبة علم، علم يتبعه حال، التوبة ندم.



قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**التوبة الندم**».

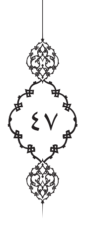




فالندم يستوجب علماً، ويعقبه عمل، فكأن النبي عليه الصلاة والسلام يشير إلى أن التوبة ندم؛ يسبقه علم، ويتبعه عمل.

الآن كي أوضح هذه الحقيقة: أنت أمام إنسان في بستان رأى أفعى، ما الذي يحصل؟ أول شيء يتمعن بها، فإذا هي أفعى، فيضطرب الحال، يولي هارباً، أو يقتلها، وهذا قانون، علاقة الإنسان بالمحيط الخارجي؛ إدراك، انفعال، سلوك، ولا يمكن أن يكون الإدراك من دون انفعال، ولا يمكن أن يكون الانفعال من دون سلوك.

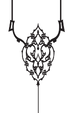
وعلى هذا عندما تعرف أنك متلبس بمعصية كبيرة، تعرف أن هذه المعصية حجاب بينك وبين الله، تعرف أن هذه المعصية قد تقودك إلى الهلاك، تندم أشد الندم، تتألم، تضطرب، تخاف، تعقد العزم على أن تقلع عن هذا الذنب، وألا تعود إليه أبداً، وأن





تصلح ما مضى.

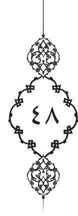
أحياناً تختلط الأوراق، الله عز وجل غفور رحيم، وقد يغيب عن هذا الذي يقول: إن الله غفور رحيم؛ أنه شديد العقاب، وأرجى آية في القرآن الكريم لو تابعتها في نهايتها: إن لم تتب فالعذاب آت لا محالة:



﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ۞وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ۞وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾. (الزمر: ٥٣-٥٥).

الخطير أن تتحول الذنوب إلى عادات

مرة قال طبيب لمريض كلمة رائعة قال له: معك مشكلة في القلب، إن تلافيتها فهي صغيرة، وإن أهملتها فهي كبيرة، كلام جميل، والذنب أحياناً

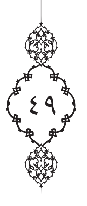




إن أردت أن تتوب منه فالقضية سهلة جداً، وإن أهملته فهذا الذنب قد ينقلب إلى عادة، ومن أصعب الأشياء أن يتخلى الإنسان عن عاداته، أنت تتدرج فتبدأ بخاطرة، بفكرة، بهمٍّ، بإرادة، بفعل، بعادة، هذا الذي قاله الله عز وجل: ﴿**فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾. (الحديد: ١٦).

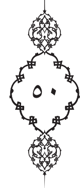
من هنا: أدق معنى نحتاجه في هذا الدرس قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ**﴾. (النساء: ١٧). لا تجعل مسافة طويلة بين ارتكاب الذنب -لا سمح الله- وبين التوبة منه، هذه المسافة الطويلة تجعلك تألف الذنب، وهذه المسافة الطويلة تجعلك تظن أنه ليس بذنب، لأنك ألفته.

تراكم الذنوب يؤدي لا محالة إلى قسوة القلوب وهو بدوره يجر إلى ساحات الظلم والبغي والعدوان والفسق والفجور والعصيان، وهذا هو حال الظلمة



والطواغيت والجبابرة، فإنهم وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الظلم والبغي والتعدي إنما بارتكاب الذنب واستسهاله والتطبع عليه وزادهم في ذلك خوف الناس عادة من الوقوف أمام الظالمين لتبيين مثالبهم وتزييف شرورهم وتعرية ما يقومون به من باطل، ولهذا السبب جاء في الحديث الشريف عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «**أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» فالجهاد على أنواع منه: مقاتلة الأعداء في ساحات الوغى، طلب العلم والمعرفة، الكد على الأهل والعيال، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الإتقان في العمل والاخلاص فيه، وكل ما يبذل فيه جهد وتعب ونصب في سبيل الحق والعدل، فهو جهاد في سبيل الله.

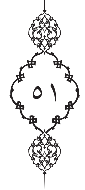
ولكن حسبما جاء في الحديث الشريف أعظم الجهاد هو قول كلمة كلا أمام الحاكم الظالم، كلا

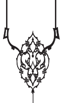




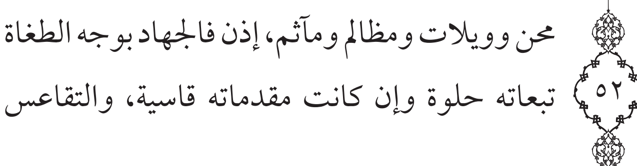


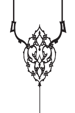
للظلم والاستبداد، كلا للقهر والكبت وسلب الحريات، كلا لنهب ثروات البلاد، كلا لانتشار الفسق والفجور والموبقات، كلا لمحاربة الدين وأهل الدين، لماذا هذه المواقف تعدّ من أعظم أنواع الجهاد؛ لأنها تعرّض صاحبها إلى المخاطر وربما تودي به إلى السجن والتعذيب والموت صابرا محتسبا إلى الله تعالى من ظلم الظالمين وجور الفاسقين، وإنما حصل هذا المؤمن المعارض للظالم على هذا الوسام العظيم، لأنه لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخشى من أجهزة النظام القمعية، ولا يهاب من بطش وترهيب، ولا يطمع في إطراء وترغيب، بل إنه قد وضع الله تعالى نصب عينيه وتوكل عليه، وهو كله ثقة بأنه لو كبر الخالق في عينه لصغر ما دونه أمامه، فإيمانه يجره إلى تلك المواقف النبيلة والشجاعة، فيقوم بواجبه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير قيام.



وإذا ما حذى الآخرون حذوه من خطباء وعلماء وصحافة وفضائيات وانترنيت وصحف ومجلات لألّبوا الرأي العام ضد الطغاة، ما يؤدي إلى ردعهم عن ارتكاب الذنوب والمعاصي والشرور والانتهاكات، وهي رسالة إلى الحكام بأنهم إذا ما حادوا عن طريق الهدى والصواب كان المؤمنون لهم بالمرصاد، فيحجموا عن الظلم والعدوان خوفا من تأليب الرأي العام ضدهم، ومن هنا جاءت أهمية ما يقوم به المؤمن المجاهد من الوقوف بوجه الظالم وردعه عن الظلم، وقد يكون سببا في توبته وإنابته وهدايته إلى الله تعالى، إذا ما قورن بالمؤمن المنكفئ على نفسه وهو يتعبد في صومعته، فإنه قد يكون سببا في تمادي الطغاة بطغيانهم وما يجره على الشعوب من محن وويلات ومظالم ومآثم، إذن فالجهاد بوجه الطغاة تبعاته حلوة وإن كانت مقدماته قاسية، والتقاعس



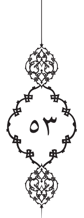



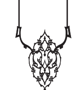
حياهم تبعاته مرة وإن كانت مقدماته مريحة، وشتان ما بين الموقفين!.

لا تقنطوا من رحمة الله

القرآن الكريم قد أولى التوبة عناية فائقة حيث دعا جميع المذنبين والعاصين والمتمردين على الله إلى الإنابة والرجوع إليه سبحانه والندم على ما صدر منهم، فخاطب الجميع بقوله سبحانه: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾. (الزمر: ٥٣).

ان الآية الشريفة حينما تعبّر ﴿**لا تقنطوا من رحمة الله**﴾ كأن الذنب الصادر من العبد بما فيه من عِظم جريرة وسوء، يستوجب بطبيعته القنوط من رحمة الله عزّ وجلّ – لولا ما بلغنا من عظيم رحمة الله– ولكن الآية المباركة جاءت تقول: ﴿**لا تقنطوا من رحمة الله**﴾.



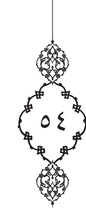


عندما نأتي الى الواقع نجد الناس في تعاملهم مع الذنب طائفتين:

الطائفة الاولى: لا تعبأ بالذنب وكأنها لا تعترف بوجود الله عزوجل.

الطائفة الثانية: مؤمنة وإيمانها يصدّها عن الذنب لكن شهوتها وشيطانها يشّدها الى الذنب، فتحاول هذه الطائفة بأي وسيلة من الوسائل ان تتجاوز وتتغلّب على هذا المانع الإيماني من المعصية لكي تعصي.

ومن جملة هذه الوسائل: القنوط من رحمة الله، فيقول: اني أذنبت وما صدر منّي من معصية كافٍ بهلاكي، وعليه هذا الذنب الاضافي الذي يصدر منّي الآن أو ما سيصدر مني من ذنوب لا تضيف ولا تزيد شيئاً؛ لان ذنوبي كثيرة بحيث لا يُنظر ولا يُلتفت الى هذه الذنوب الجديدة فهنا كثرة الذنوب وعِظمها

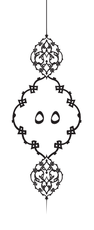


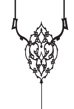



تؤدّي الى التمادي والانغماس في المعصية، فيكون منشأ إقدامه على الذنب قنوطه ويأسه من روح الله عز وجل في غفران الذنوب.

ومنها الرجاء: فيقول الانسان: الله كريم رحيم غفور، ونحن نذنب ثم نتوب ان شاء الله، أو نعمل عملاً صالحاً يمحي الذنوب، أو ... الخ، فالقرآن عندما يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**﴾. (الانفطار: ٦) يجيب هذا الانسان- صريحاً أو بلسان حاله- غرّني كرمك يا الهي، غرّني سترك المرخى عليّ، غرّني تأجيلك عني العقوبة، على أن أرتكب هذه المعاصي.

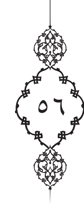
فهل من المعقول أن تكون صفة الرجاء- التي هي صفة نبيلة يتصف المؤمن بها- سبباً لمعصية الله بحيث يكون دورها كدور الشيطان؟! فهذا الانسان عنده خوف من الله عز وجل ولكن يأمل غفران ذنوبه لرحمة الله،



أو حتى لشفاعة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

فالمؤمن ينبغي عليه أن يشخّص بنفسه ما هي الوسيلة الى تشدّه الى الذنب وأي نمط يشجعه على ارتكاب المعصية ويبرر له هذا الذنب وذاك، هل هو الرجاء أو القنوط من رحمة الله، أمّا الكلام والحديث لا يكون أكثر من منبهٍ له، «من لم يكن له واعظ من نفسه لم ينفعه وعظ الواعظين» فالمهم هو الوعظ النفسي، فهو يفتش بينه وبين نفسه عن منشأ ارتكابه للمعصية، هل هو اليأس؟ حينئذٍ يحاول علاج هذا اليأس والقنوط من رحمة الله وذلك بمجرد ان يستمع بمجاميع قلبه لا أذنيه الى قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾**(الزمر: ٥٣)**.



فيجد هذه الآية تقطر رحمة ورجاء وغفراناً من




الله عزّ وجلّ، ثم تقول السورة ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ انظر الى هذه الكلمات جيداً، أنت عندما يخطئ بحقك شخص أو مجموعة أشخاص والمخطئ لم يقرر أن يرجع ويعتذر منك، فهنا أنت لا تدعوه أن يأتي ويعتذر منك، لأنه إذا لم يلبِ دعوتك ولم يستجب لها سوف يضيف ويزيد في حقّك إهانة أخرى غير تلك الإهانة التي كانت من المفروض ان يعتذر منها.

فإذا طلبت منه المجئ والصلح وأنك لم تحمل عليه محمل البغض وفي نفس الوقت أنت تحتمل أو تدري أنه لا يستجيب، فيكون هذا الطلب منك صفة كمالٍ إضافية لك ويدلّ على زيادة وسعة ساحة كرمك.

فالله عزّ اسمه هكذا فعل مع العاصين، فانه عزَّ وجلَّ يؤكد لهم الرجوع الى الربّ ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ الرب هو المصدر الطبيعي لأن ترجعوا

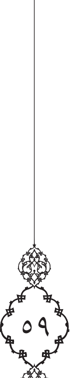



اليه، وهو الخالق والمنشئ لوجودكم، فإن الآية صحيح بعد ذلك تذكر العذاب بقولها: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ**﴾**(الزمر: ٥٤)** ولكنها آية رحمة فإنها تريد أن تحذر من العذاب، مثل الأب، حينما يخشى على ولده من أضرار التدخين أو المخدرات أو ... الخ، يبدأ يحذّر الولد ويذكر له بعض المشاهد والأمور المخيفة يذكرها لا بصيغة التهديد والتخويف والارعاب ولكن من باب الضغط عليه بل تخرج من لسانه نفحات اللطف والحنان.

وليس هذا فقط بل يقول عزّ مَنْ قال: ﴿**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾**(الزمر: ٥٥)** أي أتبعوا القرآن الذي هو أحسن ما نزل من الله- كما دلّت على ذلك ادلّة- فان العذاب ليس له موعد،



والانسان ليس عنده علم أنه في أيّ ساعة أو أرضٍ أو حالٍ يموت، ما أكثر الذين ماتوا وكانوا يتوقعون انهم سيبقون الى ما بعد موتهم، فإذا تحققت هذه الحالة في مصاديق كثيرة فما هو المانع من تحققها فيَّ أنا، والعلاج الناجع لموت البغتة هي التوبة والانابة لله تعالى قبل أن يحل العذاب بساحة الانسان العاصي، والتوبة في هذه الحالة تمثل الحالة المثلى للتسامح واللطف الإلهي بالعباد.



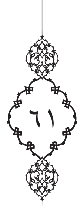
وأخيرا...

إن الله تعالى يمتحن كل عبد من عباده حينما تهجم عليه الذنوب والشهوات والرغبات، ولكن تبقى في داخل الانسان طاقات أقوى وأعظم من طاقات الشمس والـذرة أو أية قوة كونية أخرى، يعني أن الانـسـان قـادر على أن يقف بالضد من شهواته ونزواته وشيطانه إذا ما عزم وصمم على ذلك وباستطاعته أن ينتصر عليها في نهاية المطاف.

والحقيقة التي لا مناص منها أن إبليس ليس له سلطان قهري على الانسان، وعمله يكمن فقط في تزيين الذنوب والمعاصي، والانسان عنده طاقة الارادة، وإذا ما اراد فعل شيء فالبشرية اذا اجتمعت كلها ليست بقادرة على أن تثنيه عن ذلك العمل، وهذا الكلام يجري في الطاعة والمعصية على حد سواء.

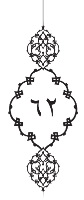


بابان مفتوحان، بـاب الحـق وبـاب الباطل، ومهما كانت المغريات فإنها غير قادرة على أن تهزم ارادة الانسان المصمم على فعل الخير، كما الانسان يقف ازاء شهوات الاكل والشرب وغيرها في نهار رمضان بمحض ارادتـه، استجابة لأمر الله تعالى، فإنه قادر أيضا على أن يكبح جماح وشرور نفسه في بقية أيام السنة، لماذا الامتناع عن المباحات في نهار رمضان؟ لأن الانسان قرر ذلك، ونحن دائما عندنا مشكلة في القرار، فإذا قرر الانسان، لا ابليس ولا الشهوات قـادرة على أن تفرض عليه خـلاف ما قرر، وأما ابليس فإنه يغوي الانسان المتردد في اتخاذ القرار، أعمل العمل الفلاني أم لا؟ أما اذا كان حازما منذ البداية على عدم الارتكاب، فإنه يوصد الباب أمام ابليس وغيره، لأن القوة التي اودعها الله تعالى داخل الانسان باستطاعتها التغلب على كل المؤثرات



الخارجية، وفي الحديث الشريف: «**المؤمن أقوى من الجبل، لأن الجبل يستقل منه والمؤمن لا يستقل من ايمانه شيء**» فالتوبة هي نفسها تلك الارادة الصلدة والصلبة التي تخرج من اعماق الغافل الذي وقع في حبائل الشيطان في حين غفلة من أمره، وتقول بملء فيها كلا للسفاسف نعم للكمالات.

وفي هذا المضمار يقول الفاضل النراقي في معراج السعادة: إن امرأة غير ملتزمة تمر مع مجموعة من امائها من بيت في زقاق يعلو منه بكاء ونحيب، تتعجب من هذا الأمر، فترسل واحدة من امائها لتحري الخبر ولكنها تبقى في ذلك البيت، وبعد استبطائها ترسل أمة ثانية لتقفي الخبر فإنها فعلت ما فعلت الأولى، وعندما ارسلت الثالثة أوصتها بالرجوع بسرعة واخبارها عما يحدث في البيت، الثالثة تذهب وتأتي اليها قائلة: سيدتي هذا المكان ليس مأتما للأموات

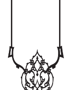




وإنها مأتما لذوي الصحائف السود! ما حدى بتلك المرأة الدخول في البيت بنفسها واذا بها ترى الخطيب وهو على المنبر يقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾. (الفرقان:١٢) تتأثر من كلمات الخطيب وعندما ينزل من على المنبر تلتفت اليه قائلة: انني واحدة من أصحاب الصحائف السود فهل لي من توبة؟! قال لها الشيخ: نعم يتوب الله عليك وإن كانت ذنوبك مثل ذنوب (شعوانه)! وهي معروفة في ذلك البلد بارتكابها جميع أنواع المعاصي والفجور، فتقول له يا شيخ: أنا (شعوانة)! هل لي من توبة؟! يقول لها الشيخ: نعم إذا تبت وعملت بشرائط التوبة يتوب الله تعالى عليك، فتقرر التوبة على يد الشيخ، يقول الشيخ النراقي: إنها تحولت من امرأة فاسقة إلى ولية من أولياء الله.







المحتويات